

# مدينة النجف في رحلة أبي طالب خان

السيد هادي عيسى الحكيم (٥)

عرف العرب السفر ومارسوا الترحال في شبه الجزيرة العربية والبلدان المتاخمة وقاموا برحلتهم الشتاء والصيف اللتين ورد ذكرهما بالقرآن الكريم. إن الرحلة قديمة وإن كانت للأغراض التجارية، وأياً كانت دوافع الرسالة المعلنة والخفية فقد اتصف أغلبية الرحالة ولو بدرجات متفاوتة بدقة الملاحظة والوصف والتقصي في تسجيل ملاحظاتهم بأمانة وصدق.

تعد رحلة أبي طالب خان من نوادر الرحلات، فالمعروف أن الأوربيين كانوا يسبحون في بلاد الشرق ويكتبون وصفاً لهله البلدان من حيث الطبيعة والمناخ والوضع الاجتماعي والحوادث التي كانوا يمرون بها، ولا ريب أننا الآن نقتبس من رحلاتهم الشيء الكثير من أخبار الشرق خصائص أخبار الطرق ومدنه، أما إن شقيقاً يسبح في بلاد أوربا ويصفها هذا الوصف المسهب المحتوي على كل غريب وطريف فضلاً عن التاريخ السياسي الذي عاصره الرحالة فهذا من أندر النوادر في عصره، وكذلك أسرع الإنجليز والفرنسيون والهولنديون إلى ترجمة الرحلة إلى لغاتهم.

كان أبو طالب خان نافذ الملاحظة ومعمّن النظر مثقفاً ثقافة عالية قلما يفوته شيء، ومما وقع عليه بصره أو تناوله السياحة فكرة، وستبقى رحلته مثلاً لتأليف الرحلات ولقد أحسن تنظيمها، والظاهر لنا أنه كتبها مذكرات متفرقة فلما عاد إلى بلاده رتبها ونظمها وأحسن تأليفها، إن أبا طالب خان المولود في مدينة «لكنود» بالهند سنة ١١٦٧هـ/١٧٥٢م هو الرحالة الوحيد الذي رحل من بلاد الشرق إلى أوربا، وقد سارع الأوربيون إلى ترجمة هذه الرحلة إلى لغاتهم المختلفة لأنها تعتبر وثيقة تاريخية عن بلدانهم، وقد قام بترجمتها عن اللغة الفرنسية الدكتور مصطفى جواد.

لقد طاف أبو طالب خان بالعديد من البلدان الأوربية وعند رجوعه العراق عند طريق تركيا فمر بالموصل وسامراء وبغداد وكربلاء والحلة والنجف، وسنلقي بعض الضوء على رحلته

(\*) أديب، باحث، عضو مؤسسة التراث النجفي.

إلى النجف التي زارها سنة ١٨٠٣م فبعد مروره بمدينة الحلة وبقائه فيها يوماً واحداً قصد النجف مروراً بقرية ذي الكفل وقد استهل الرحلة بكلامه عن طبيعة أرض النجف وتربتها التي يضرب بها المثل في طيها ونقاها. قال:

«النجف منشأة في سهل وأرضها خليط من الصلصال والرمال».

وقد بدت له النجف سهلية بينما أنشئت النجف على أرض مرتفعة، لكنه عاد واعترف أن قسماً منها على مرتفع من الأرض بقوله:

«وفي نواحيها أرض مرتفعة».

ثم انتقل إلى وصف السور المحيط بالمدينة لكنه لم يحدد أي الأسوار وربما أراد وصف السور الخامس والخارجي فقال:

«وقد أحيط بالنجف سور ذو بدنان في زوايا».

وفي أثناء تواجده بالنجف شاهد أعمال حفر الخندق الذي يقع خلف السور السادس فقال:

«كانت الأعمال في ذلك أعمال مستمرة».

مع العلم أنه لم يشر إلى السور السادس بوشر بينائه قبل وصول الرحال إلى النجف، إذ بدء بناؤه سنة ١٢١٧هـ واكمل سنة ١٢٢٦هـ، وعنه قال الشيخ جعفر محبوبة في ماضي النجف ج١:

«فبنى هذا السور الحصين، وشيد أركانه، وحفر خلفه خندقاً عميقاً، وأقيمت فيه الأبراج المكثفة بالمرصد والمخافر، وجعل له في طبقاته ثقوباً و منافذ متقاربة».

وأهم شيء في المدينة أشار إليه الرحالة هو مرقد الإمام علي عليه السلام فقد وصفه وصفاً دقيقاً مبتدئاً بباب الصحن الشريف والمنابر الذهبية التي كان يشير إليها بالأبراج قال:

«وباب الداخل مشيدة بهندسة معمارية أنيقة، والعتبة والأبراج المغطاة بالطابوق المذهب».

أما عن روحانية المرقد المقدس وما أصاب الرحالة أبي طالب من خشوع عند دخوله

الضريح قال:

«عرتني رهبة قدسية وارتعشت جميع أعضائي».

وتحدث عن بعض القبور المحيطة بالقبور الشريف وبعض العادات والتقاليد التي كان يقوم بها الزائرون، ذكر قصة طريفة لأحد الزائرين وقد شاهده الرحالة وذكر هيأته - أي الزائر- وملابسه وطريقة تأديته لمراسيم الزيارة، قال:

«وصل أعرابي ذو لحية بيضاء لم يمر المشط عليها طوال عمرها، وهي مترسلة حتى حزامه،

وعليه قميص غليظ، وعلى خصره قطعة من «الجوخ»، وعبقاه المستشفران يدلان أنه جاء من سفر

بعيد، فدخل غير ملتفت إلى أحد، وبدلاً من ان يصلي الصلاة المقررة صاح يا أبا الحسين السلام عليك، مع ما فعله من سوء الأدب -على رأي الرحالة- الظاهر كان إيمانه حياً قوياً جداً بحيث كانت دموعه على خديه، وقد ظننت بادئ ذي بدء إن أبا الحسين أحد أصحابه وأنه كان نائماً عند الضريح وأراد إيقاظه».

وعند خروجه من المشهد من الناحية الغربية شاهد مقام الإمام عليه السلام ومرقد الصحابي صافي الصفا اليماني (رض) وعن ذكرهما قال:

«وعلى مسافة قليلة من المشهد مقامان كبيران موقوفان على ذكرى زين العابدين بن الحسين وصفة الصفوة» ولم يحدد معنى المقام الثاني أو يتأكد من تسميته، وهذا وهم منه، وفي نفس الوهم وقع المترجم عندما أشار بالهامش في محاولة منه لتتقيح ما وقع به الرحالة فقال:

«لم تتضح لي حقيقة هذا الاسم، ولعله أراد صفوة الصفوة» المقصود به أثيب اليماني».

وبعد انتهاء واجباته الدينية قرر الرحالة الرجوع إلى بغداد سالكاً نفس الطريق الذي جاء منه إلى الحلة وبذلك يقول:

«وقد زرت بين النجف والحلة مسجد الكوفة» ولم يحدد ماضيه من المعالم، ويبدو أنه مر به مروراً سريعاً، وقد وصف رجوعه إلى بغداد بعد خروجه من الكوفة: «وقضيت الليلة الأولى بالحلة والثانية بكربلاء والثالثة وصلت ساكناً صحيح البدن إلى بغداد».

